كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

النقد القديم/المرحلة الثالثة

د. جبار عبد ضاحي

المحاضرة الثانية:

النقد في عصر ما قبل الاسلام:

Criticism in the pre-Islamic era

ينقسم مؤرخي النقد العربي القديم في درسهم له الى طائفتين: واحدة ترى أن النقد العربي يبدأ في عصر ما قبل الاسلام، وأخرى ترى أن النقد المنهجي على نحو خاص يبدأ في القرن الثاني للهجرة. ومن الجدير بالذكر أن النقد العربي قبل الاسلام كان ذوقيا فطريا عاما يخلو في أغلب الاحيان من التعليل والتفسير وأن النقد العربي بعد انتهاء مرحلة الرواية والتدوين بدأ يبرز ويعلل على وفق منهج . ويمكن أن يستدل الباحث على أن العرب عرفوا النقد الأدبي والبلاغي قبل الاسلام بأمرين:

الأول: دليل عقلي لا يمكن إنكاره وهو أنه لا يمكن أن يكون الشعر قد وصل الى ما وصل إليه في ذلك العهد وأن الخطابة بلغت ذروتها من غير أن يكون هناك عقل مدبر لكل ذلك ومن غير أن تكون هناك أصول عامة تعارف عليها الشعراء والمتكلمين وساروا عليها فيما نظموا أو قالوا ومهما تحدث الباحثون عن الذوق السليم والسليقة الصافية ومهما وصفوهم بالفطنة والذكاء فإن العقل ينكر أن يكون ما كان من غير ثقابة ودربة. وقواعد تضيئ لهم الطريق وتفتح امامهم سبل القول.

الثاني: دليل نقلي وهو ما أثر عنهم وما جاء عن خطبائهم ووصف خطبهم وقد كان الخطباء يعتزون ببيانهم، ويفخرون بأنفسهم ولما دخل ضمرا بن ضمرة على النعمان بن المنذر زرى عليه الذي رأى من دمامته وقصره وقلته فقال النعمان تسمع بالمعيدي لا ان تراه، فقال ابيت للعن ان الرجال لا توزن بالميزان وان المرء بأصغريه بقلبه ولسانه ان قال قال ببيان وكان ضمرة خطيبا وشاعرا وفارسا شريفا سيدا في قومه.

وأستدل الجاحظ في كتابه البيان والتبيين من الفاظ العيي والبكي والحصر والمفحم والخطل والمسح على أن العرب قبل الاسلام عرفوا كثيرا من عيوب البلاغة والخطابة ووصفوا كلامهم في اشعارهم فجعلوها كبرود العصي وكالحلل والمعاطف والديباج والوشي وأشباه ذلك ووصفوا شعرائهم واضفوا عليهم القابا كالمهلهل والمرقش والمثقب والمنخل والنابغة وهذه الاوصاف تتصل بأحكامهم النقدية وبذوقهم الذي ميزوا به بين شاعر وشاعر. وكان بعض الشعراء يعنون بأشعارهم وينقحونها قبل أن يذيعوها بين الناس وأشتهر زهير بن ابي سلمى بالحوليات واتبعه في ذلك الحطيئة، وقال الاصمعي زهير بن ابي سلمى والحطيئة واشباههما عبيد الشعر لانهم نقحوا ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . أن وقوف الشعراء عند قصائدهم لينقحوها ويعيدوا النظر فيها يدل على الروح النقدية التي كان الشاعر نفسه يمارسها قبل أن ينقده السامعون بل توجب وجوده ما دام النقد ملازما للأدب أو تاليه في الوجود. فالشاعر الذي يهذب ويشذب وينقح ويعدل ، يمارس النقد للنص الذي يبدعه وهو نقد ملازم للعملية الابداعية ومتمم لها والمستمع أو القارئ الذي يصوغ ويميز ويوازن ويقوم وإنما يمارس نقدا تالياً للعملية النقدية. ويظهر أن هذين النوعين وجدا في عصر ما قبل الاسلام ويرى بعض الدارسين أن الشعر العربي الذي وصلنا ناضجا مر بضروب من التهذيب حتى بلغ حد الاتقان وبين الحداء الذي يظن أنه نواة الشعر العربي وبين القصيدة المحكمة عصر طويل من النقد الذي الح على الشعر بالإصلاح والتهذيب حتى أنتهى به الى الإصلاح والجودة. فضلا عن ذلك هناك اسباب أخرى تدعو بالضرورة الى أن يكون

هناك نقدا اخر غير نقد التهذيب والتنقيح وهو النقد التالي للعملية الإبداعية ، نقد المستمع للشعر او القارئ له.وهذه الأسباب هي:

1-إستقرار المناهج الشعرية والتقاليد على وجه من الوجوه بل لقد بلغ من الاستقرار هذه التقاليد إنها استطاعت ان تفرض وجودها في اجيال.

2-الدراسة الشعرية المتمثلة بالرواية فقد كان لكل شاعر راوية يروي اشعاره ويحفظ معانيه ويتعرف على صوره الفنية.

3-الجمهور الأدبي الذي يفهم الشعر ويتذوقه فيحكم عليه ويتمثل هذا الأمر بالأسواق الأدبية التي تقام في أرجاء الجزيرة العربية مثل سوق عكاظ وسوق المربد.

ومن أهم الملاحظات التي لاحظها الدارسون لهذا النقد أم الروايات النقدية المنسوبة الى هذا العصر تخص الشعر دون النثر وأن هذه الروايات قليلة قياسا الى الحقبة الزمنية التي تنتسب اليها والى كثرة الشعر وأخيرا إن هذه الروايات ترتبط بأسماء الشعراء بمعنى أن الناقد نفسه هو الشاعر وتفسير هذه الظواهر ليس بالأمر الصعب فالفن الادبي الوحيد الذي كان في ذلك العصر هو الشعر ولم يكن للنثر شان يذكر والمؤرخ لهذا العصر لا يجد للنثر مكانا إلا فيما يقال عن الحكم والأمثال وسجع الكهان وغيرها.وما كان موجودا في نثر جاهلي لم يحفظ لأن الذاكرة الانسانية أقدر على حفظ الشعر واستظهاره من النثر ولذلك روي الشعر ولم يروى النثر على قلته. ومع قلة الروايات النقدية التي بين ايدينا يلمح الدارس تشعب اهتمامات الناقد الجاهلي فقد كان ينظر الى النص الشعري من زوايا عدة وكان عروض القصيدة واحدا من هذه الجوانب التي أولها الناقد القديم اهتمامه.ومعياره في هذا إذنه الحساسة التي ترصد أي اختلال في وزن البيت وهو اختلال يبدو أشد ما يبدو عندما تغنى الأبيات فقد روي المرزباني في الموشح لم يقوى أحد من الطبقة الاولى ولا من أشبههم إلا النابغة في بيتين.قوله:

أم آل مية رائح او مقتدي عجلان او دزاد وغير مزود

زعم البوارح ان رحلتنا غدا وبذلك خبرنا الغراب الأسود

وقوله: سقط النصيف ولم ترد اسقاطه تناولته واتقتنا باليد

بمخضب رخص كان بنانه عنم يكاد من اللطافة يعقد

فقدم المدينة فعيب عليه ذلك فلم يأبه حتى اسمعوه اياه في غناء فقالوا للجارية اذا صرت الى القافية فرتلي فلما قالت (الغراب الاسود) و(اليد) علم فأنتبه،فلم يعد اليه وقال قدمت الحجاز وفي شعري صنعته ورحلت عنها وانا اشعر الناس ويبدو ان القدماء لم يكونوا يعرفون المصلح آنذاك وهو امر طبيعي فالمصطلح النقدي او سواه لا يوجد الا بعد ان تكون الظاهرة وتتضح معالمها.وقد لا حظنا أن النابغة وصف الاقواء في شعره (للصنعة) وفي رواية أخرى(بالعاهة).وفي رواية ثالثة(في شعري شيء) وفي رواية رابعة(بعض العهدة).وهذا دليل على أن هذا الخلل لم يكن مفهوما بعد. ولم يستقر بعد مصطلحه الخاص به، والاقواء يقترن بتطور القصيدة نحو الاحسن واكتمال الشكل العروض الامثل ولذلك فهو وسواه اثر من آثار طفولة الشعر ودليل على ان العربي لم يهتد مرة واحدة الى حركة الروي،فذم الإقواء نوع من البصر في الشعر.ومن الروايات التي تشير الى معرفة النقاد العرب الى منهج الموازنة في الحكم على الشاعر ويبدو هذا واضحا في رواية ام جندب،زوج امرئ القيس التي وازنت بين شعر زوجها وشعر علقمة الفحل بعد ان تنازعا فقالت قولا شعرا،تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة وروي واحد فقال امرئ القيس:

خليلي مر بي على ام جندب تقضي لبانات الفؤاد المعذب

وقال علقمة: ذهبت من الهجران في غير مذهب ولم يك حقا طول هذا التجندب

فانشداها جميعا القصيدتين فقالت لامرئ القيس علقمة اشعر منك قال كيف قالت لانك قلت فللسوط الهوب وللساق درة وللزجر منه وقع اخرج مذهب،فجهدت فرسك بسوطك ومريت فاتعبته وقال علقمة فادركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب، فادرك فرسه ثانيا من عنانه ولم يضربه ولم يتعبه.فقال ماهو باشعر مني ولكنك له عاشقة،فسمي الفحل لذلك.وثمة رواية اخرى تتحدث ان النابغة كانت تضرب له قبة حمراء من آدم بسوق عكاظ فتاتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها .قال فأول من أنشد الأعشى ميمون بن قيس أبو بصير،قم أنشد حسان بن ثابت

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى واسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وبني محرق فاكرم بنا خالا واكرم بنا ابنما

فقال له النابغة: أنت شاعر ولكنك اقللت عدد جفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت،ولم تفخر بمن ولدك.

إذاً النقد الذي وجه الى حسان يتعلق بإستعمال جموع القلة بدل جموع الكثرة وأنه فخر بالأبناء ولم يفخر بالآباء. والرواية تدل على أن النقد في ذلك العصر كان يوجه عنايته للألفاظ واستعمالاتها في السياق الذي ترد فيه.